دور التراث الفني في النهضة الحضارية

الدكتور وليد محمود الجادر
كلية الآداب – جامعة بغداد

يعتبر النشاط الفني جزءا لا يتجزأ من النشاط الذي يقوم به الانسان من اجل فهم اعمق للواقع وتطويره ، والفنان في كل مراحل انتاجه ، لا يشتغل بيديه فقط ، بل بجسمه وتفكيره منطلقا لمعرفة الباطن من وراء الظاهر .

ولقد ثبت علماً وجود ارتباط بين الخبرة الحسية والفكر بأعتباره مركز المعرفة وخاصة بعد دخول الفرد المعاصر او صاحب الحضارات القديمة في مداخل متنوعة في مجالات العلم[1] ،وهذا على الرغم من وجود آراء للبعض تنادى بعدم امكانية ربط قضايا الفن والدين بشكل خاص عن طريق الفكر التجريبي[2] .

ان هدفي من وراء هذه الدراسة ان نفهم بشكل افضل وبصورة اكثر انتظاما ، شعور الانسان وتصرفه وهدفه على مر العصور من خلال ما يصنعه من قطع نسميها اليوم قطعا فنية .

وعلينا ان نذكر هنا بأن الفن كان وما يزال جزءا لايتجزأ من تاريخ الانسان وثقافته وتراثه ، ولقد ثبت ان دراسة فن شعب من الشعوب انما تؤدي وتساهم في تكوين فكرة واضحة عن مستواه

الحضاري ومدى ما وصل اليه من خبرات وتجارب في شتى جوانب حياته ، كذلك تكون الاحاطة بالنشاطات الفنية اساسا لعملية تقييم للنشاط الحضاري ووسيلة الى معرفة العديد من الحقائق . هذا اضافة الى امكانية الفن في تزويد التجمع البشري بحقائق جديدة ، موفرا له عناصر خبرة جديدة من شأنها المساهمة في العطاء الحضاري واستمراره وقدرته على التفاعل والاتصال بحضارات اخرى .

وهكذا نلاحظ اتصال الفن بالتاريخ الخاص بشعب ما وبالتاريخ العام ، وجوانب هذا الفن بفروعه المختلفة نجدها ترتبط بعضها ببعض كما ترتبط بمفهوم العصر او الزمان ، وقد يسيطر وينمو جانب من جوانب الفن لفترة معينة ولكن لا يمكن ان يوجد فن واحدا بعيداً جدا عن جوانب الفن الاخرى ، وهكذا تتصل الفنون كلها بروح الثقافة وبشكل اعم بروح الحضارة العامة للفترة او العصر او الكتلة الزمانية المحددة والمحصورة للدراسة والتحليل .

وافهم ان جدوى مثل هذه الدراسة اليوم هي ايضا محاولة للاطلاع المنتظم والاستفادة العلمية مما صنعه الانسان وما يحيط بموضوعاته المصنوعة هذه من افكار واحاسيس تساعدنا بمجموعها على فهم اعمق للحضارة .

ان الارتباط الفكرى والحسى بالبيئة والمناخ والعامل الزماني والحوادث المحيطة بمرحلة صناعة معينة يبدو اليوم اكثر من أي وقت مضى ، وهكذا تصبح مثل هذه الدراسة وغيرها من الدراسات واحدة من الاسس في سبيل معرفة اعمق بتاريخ وحضارة اي شعب او تجمع

سكاني او بشري في بقعة جغرافية معينة ، وهذه الاسس تساهم ولاشك في معرفة افضل بديانة وشعور واسلوب تفكير هذه الشعوب •

ان اصدار حكم ما على القيمة الفنية والمستوى الجمالي لمجموعة القطع الفنية المنجزة يرتبط ارتباطا وثيقا بالشكل السياسي والاجتماعي والاقتصادي للمجتمع،على أساس ان القطع الفنية تعبير عن روح الحضارة وحيويتها ، وتجسيد حي للبناء الفكري المتكون نتيجة جذور اجتماعية حضارية •

ان كل هذه الدراسة اذن تساعدنا في الحصول على نتائج ايجابية اساسها خدمة الفكر الجديد نحو فهم افضل للمجتمع والعالم • واستند على قول هربرت ريد الذي يقول بأنه : « اذا كان للعلم لغته القائمة على العلامات فأن للفن لغته القائمة على الرموز ، ويرتبط بهذه الرموز خيال ابداعي لا يقل عن منطق الاستدلال العلمي »[٣] •

كما انه لابد من النشاط الفني ، كما هو الحال في النشاط العلمي ، من توافر مثل أعلى للموضوع والقابلية للتحقيق وهذا عنصر ضروري من عناصر الابداع الفني ، كما هو في الوقت نفسه يعتبر مقوم اساسى من مقومات المنهج العلمي •

ولقد اخذ الكثير من الباحثين بسياق تحليل تطور اشياء طبيعية : مثل تحليل الاشنات وتطورها ، ومن ثم الخلايا وتطور الانسان بيولوجيا •• وعلى غرار هذا التحليل العلمي انساقوا في تحليل الحوادث التاريخية ، فالقصد من البحث الاول اذا هو بداية نشوء الحركة على الارض وتطور الانسان ، والقصد من الثاني : البحث في كيفية تطور

الانسان فكريا وثقافيا ، وتفسير مهمة الحضارة ككل وجعلها مهضومة بأسلوب علمي ايجابي يلائم روح العصر .

وتتبع جذور الفن والثقافة يستلزم ، كما سبق ذكره ، ملاحظة عنصري الزمان والمكان، وهكذا يجب تقييم النتاجات الخاصة بحقول الفن مثلا من خلال الحوادث المحيطة بها ، والظاهرة الفنية او الثقافية في الماضي ليست امرا مطلقا دائما ، وانما لكل حقيقة اهميتها النسبية من حيث العصر الذي وجدت فيه ومن حيث انعكاسها على جذور الحياة المعاصرة ولم يعد تقييم التاريخ على انه تراكمات للحوادث السياسية او تقييم تقليدي من تاريخ قديم ومتوسط وحديث ، بل اصبح لزاما على المؤرخ الملتزم بالمنهج العلمي ان يكون ملما بنسبية كافية بعمليات التطور الفكرى للأنسان من حيث ارتباط ذلك بالكون والثقافة والبيولوجيا مثلا .. وهكذا امكن اليوم ربط التيارات الفكرية والثقافية والفنية القديمة بمشابهاتها المعاصرة او الحديثة مع ملاحظة عنصري الزمان والمكان كذلك ، وامكن الخروج بنتائج ايجابية اساسها فهم مفردات العالم القديم .

لقد امكن القول اليوم بأن الاغريق انفسهم في خلال مراحل تجميعهم وتوصلهم الى المعلومات والمفردات العلمية بأنهم استنتجوا من المعرفة التجريبية والجزئية لاقوام الشرق قدرا منطقيا متماسكا من العلم ، وبنفس المستوى تقريبا كان الحال بالنسبة الى تطبيقاتهم الفنية التي هي في محتواها مجموعة الفنون والحرف ومختلف انواع الانشطة التي يقوم الانسان بواسطتها بتطوير وصيانة حياته اليومية الخاصة والعامة .

ان الرجوع زمنيا لفترة بداية ما نسميه بالحضارة يتعمق بأزدياد

نتيجة تطور اساليب التنقيبات والمكتشفات ويحدد البعض من الباحثين هذه البداية في مصر وذلك منذ خمسة الى ستة الاف سنة من الآن ، ولكن التوصل الى اكتشاف حضارة السومريين بعد ذلك فأن تاريخ بداية التجمعات الانسانية المتحضرة يعود بهذه الفترة الى الف سنة اخرى فدما . وخلال السنين الاخيرة يتوصل وبأستمرار المنقبون الى المزيد من هذا العمق الزمني وصولاً الى تحديد الالف الثاني عشر والحادي عشر من الآن كبداية عملية واقعية ومادية لهذه البداية الخلاقة لتحول الانسان من الصراع المستمر مع الطبيعة الى بداية الاستقرار وتنظيم اسس للحضارة وبشكل مستمر ومتسلسل احيانا ومتقطع في احيان واماكن اخرى .

وتعتبر الآن مراكز تجمعات شعوب الشرقين الاوسط والادنى القديمين وكذلك مراكز في شمال افريقيا المحطات الاولى التي مارست فيها هذه الشعوب تجاربها الحضارية الاولى وذلك خلال صراع طويل وصبور مع الطبيعة ومجمل نتاجات هذه الشعوب في مختلف جوانب مفرداتها الفنية خاصة ، اعطانا صورة عن الواقع الموضوعي الذي انعكس في فكر الانسان ثم تجسد في صور فنية . ومثل هذا الواقع ينطبق بشكل خاص على فنون هذه التجمعات خلال عصور ما قبل التاريخ ، حيث ان الكثير من الافكار والتأملات الانسانية لم تظهر على شكل كتابة او تدوين قبل ان يعرف ذلك الانسان ، وهكذا فأننا نجهل الكثير منها الا من خلال استقرائنا لما اكتشفه الآثاريون من مخططات البيوت والآثار التي وجدت فيها وكان من اهمها الفخاريات بزخارفها المعبرة والموضحة للغة يمكن خلالها دراسة كثيرا من معالم تصور تجمع سكاني

معين في المناطق المذكورة آنفا وكذلك التكهن عن طبيعة علاقاته اليومية واستقراره وحسه وحتى جوانب عديدة من افكاره ، كذلك الحال مع الزخارف ، الالوان ودرجات الاتقان الصناعي[٤] .

ونتيجة دراسة خاصة بتفسير الرموز المستحدثة على القطع الفخارية ومحاولة تقريب هذه الرموز الى الاذهان امكن معرفة مقدار صلة هذه التجمعات السكانية بالطبيعة ، وفهم الجمال الشكلي والنفسي لها من خلال ادراك هذه الصلة .

كما ان دراسة هذه الرموز يوصلنا الى فهم ارتباطها المباشر وغير المباشر بالديانة وتاريخها وتطورها ونمو مفاهيمها ، علما بأن بعض هذه الرموز تؤدي الى معرفة او فهم رموز اخرى وقد تأخذ بعضها موضوع اسطورة او حدث معين[٥] . لقد وصلت هذه التجمعات السكانية الى تحقيق مرحلة التجريد كأسلوب تعبيري في الاشكال المؤدات على انتاجاتها الفنية ، ولعلنا ندرك توصل هذه التجمعات السكانية الى تحقيق هذه المرحلة التعبيرية من الناحيتين العلمية والعملية التي تصور كيفية توصلهم الى هذه المرحلة التي يختلط فيها الاتجاه العلمي مع النظرة والواقع الفكري للاشياء وذلك من خلال المراكز الادراكية في الدماغ ملتقطة من العالم الخارجي بالاحساس عن طريق العينيين والمأخوذ بوعي من مبدأ الاخذ والنقل من الطبيعة ثم كيفية الوصول الى تلخيص هذا الاخذ وتبسيطه واختياره وتشكيله ، والاخير اعني فيه وضع الشكل بصورة يوضح المعنى بحيث تبرز معه اهم ميزاته المثيرة للحس والفكر . والتجريد في هذا الاساس يعتبر صفة اساسية

وراء العلم والدين واللغة والرياضيات ويعتبر كذلك اساسا من اسس الرقي والتقدم المدني[٦] .

وبدأ بالعصور التاريخية في هذه المناطق السالفة الذكر نجد ان فنون شعوبها بشكل عام كانت تتجاوب مع مطالب رئيسية محددة : فهي فنون تسير في خط ديني ومرتبطة به ارتباطا يكاد يكون كليا ، ولقد عكست هذه الفنون الحالة الاجتماعية من خلال ذلك بطبيعة الحال ، وبقي هذا شأنها من الارتباط الوثيق حتى وصلت الى عهد تميز بتقلبات كثيرة في مسيرة الفن ، فكانت تتجاذب الفنون عوامل التطور الاجتماعي والفكري .

وهكذا نجد ان هذه الفنون والانتاجات الفنية ومن ضمنها فن البناء قد خضعت لقواعد خاصة معروفة ، وخضع تفسيرها لعاملين : الواقعية والايعاز ، حيث اثر في الاول ، ظروف البيئة والطقس وطبيعة التربة ، بينما اعتمد الثاني على التكوين الشكلي لوعي المجتمع ومظاهره النفسية الخاصة التي تكون عقلية الفنان وتدفعه للانتاج والعمل .

ومع شيوع الافكار الدينية وتمركز السلطات وتنامي القوى الاقتصادية ، فأن فنون شعوب هذه المناطق قد تطورت بصورة واضحة رافقت معها تطورا في الفكر والمعرفة والتجارب والعلاقات مع الآخرين بصورة اكثر اتساعا من السابق ، وهكذا اصبحنا امام تنوع واسع في حقول الفنون سواء في النوع والكم والحركة واللون والعناصر الزخرفية وحتى الحجم ، كما نجد تنوعا في المدارس من حيث الاسلوب وطريقة المعالجة اخذا بنظر الاعتبار طبيعة المواد الاولية المستخدمة . ان عالمية

هذه الفنون وانسانيتها لم تحل بينها وبين ظهور انماط جديدة ومختلفة التي ظهرت تبعا لظروف البيئة الخاصة وتأثير الاحداث ، والواقع ان الفن لم يعرف الا نادرا القوالب المحدودة او الصياغات الثابتة ، بل كان له من طبيعته الخاصة ما هيأ لظهور انماقه الكثيرة .

وتتعرف على مراكز الحضارة في مناطق الشرقين الاوسط والادنى القديمين لنجد السومريين مثلا في العراق يهتدون الى اكتشاف الكتابة ويساهمون في التدوين الذي تطور بالدافع الاقتصادي ليصبح تدوينا للقضايا الدينية والحوادث وفعاليات الانسان في مختلف المجالات ، وكان انسومريون حقا مبدعين في مجالات عديدة اخرى اعتبرت بحق اساسا للتطور الانساني ، فهم اول من اسس نظم الري واكتشفوا التعدين واستخدموا وتوسعوا في استخدام المعادن في المقايضات التجارية(٧) ، ونظموا عقود المبادلات التجارية قبل ان يبدع في هذا المجال وفيما بعد الفينيقيون على السواحل الشرقية للبحر المتوسط وفي اقسام عديدة من شمال افريقية .. كذلك يرجع الفضل للسومريين في عقد الاقواس من الحجر وعمل القباب والاعمدة نتيجة تطبيقاتهم العملية في البناء . ثم ابدعوا اشكالا جديدة في هذا القطاع الهندسي ذلك هو بناء الزقورات ، وهي هياكل البناء الصلدة والمبنية من اللبن والمغلفة بالآجر ، ولقد شيد السومريون نماذج من هذه الزقورات في معظم مدنهم الرئيسية وكانت تحوي الى جانب شكلها المعماري البديع مضمونا دينيا حيث كانت واسطة الربط بين الاعلى والارض ومكان استقبال ونزول الاله في المدينة .

وفي مجالات النحت برع السومريون في ترجمة مفاهيمهم الخاصة

بالحياة والعالم والصراع بين الخير والشر . وكانت ابرز المواضيع التي اهتموا بها مشكلة او ازمة الخلود ، واعتبرت ملحمة كلكامش نموذجا جيدا من ناحية اسلوب وسياق تدوينها الادبي اضافة الى مضمونها الفلسفي والعلمي في نفس الوقت حيث برهن السومريون انه من المستحيل خلود البشر ، لأن الخلود صفة خاصة بالآلهة فقط .

ومنذ الألف السادس[1] ق.م (ومن المحتمل ان يكون قبل ذلك) ابتكر العراقيون اسلوبا اصيلا في النحت والحفر ذلك هو فن الاختام والحفر عليها بأشكال هندسية محورة في الغالب من اشكال الحيوان والنبات ، ولقد تمكن السومريون بالذات من تطوير هذه الاختام سواء في اسلوب صناعتها او في موضوعاتها المحفورة على حجومها الصغيرة ، ثم جعلوا هذه الاختام على هيئات اسطوانية استخدمت كأختام لتثبيت الملكية وكأسلوب متعارف عليه لتثبيت الشخصية عند ابرام العقود والمعاملات التجارية ، واحتوت هذه على موضوعات هي اشكال لمشاهد دينية واسطورية وكتابات مسمارية ونقشت كل هذه على مساحات صغيرة بأساليب متنوعة وصلت الى مراحل الرمز والتجريد .

وكان تراث الأكديين والآشوريين قد بني في اول امره على اعمدة سومرية ، ثم سرعان ما استقل البابليون والآشوريون فيما بعد ليكونوا تراثا خاصا ومتميزا وحدث مثل ذلك بالنسبة للفن والحضارة عند اليونان الذين كانت بدايتيهما ذات طابع تظهر فيه المؤثرات المصرية والآشورية والبابلية ، ثم تبلورت فيما بعد لتستقل وتكون شخصية تؤثر هي بدورها على حضارات لاحقة وتكون اساسا لعصور النهضة الاوربية

فيما بعد[٩] .

وبنفس مستوى براعة الآشوريين في فنونهم المتعددة الجوانب واستخدامهم لمواد اولية اساسها الطين والحجارة والمعادن[١٠] ، فأنهم في الفترة ذاتها قد طورا علوم السومريين في الطب والفلك والرياضيات ، وتميزوا من خلال تطبيقاتهم الواقعية وتجاربهم التي استمدوها عن طريق الحروب وعلاقاتهم مع التجمعات السكانية خارج مناطقهم ، بتفتح واضح في نظرتهم لغير المرئيات والديانة ولم يغالوا فيما يتعلق بالعالم الآخر على عكس السومريين والمصريين الذين تميزت نظرتهم بالاستسلام والايمان القوى بالعالم الآخر .

وتميز البابليون بنزعة فكرية واضحة المعالم مختلفة عن النزعة الآشورية كما تميزوا بخطوط خارجية خاصة بفنونهم مع بقاء المحتوى متشابها مع نظيره الآشوري ، ولكنهم اختلفوا عنهم في طبيعة علاقاتهم مع الاخرين وطبيعة معاملتهم الاقرب الى الصوفية وتميزوا كذلك بالبحث والتقصى في قضايا الدين ورتبوا نظما للديانات وارتباطها مع الفلك بشكل اعجب كثيرا اغريق العصر الهلنستي فأنكب لوسيوم الاسكندرية على الافادة الواسعة مما تركه البابليون وما كتبه بيروسوس وغيره عن تاريخ بابل[١١] .

ومن الناحية الثانية وفي نفس المنطقة ، فأنه لم يكن بأمكان الاخمينيين الفرس وغيرهم من اللذين احتكوا حضاريا بحضارات العراق رفض ما ورثوه من عناصر حضارية متطورة . كما لا تنكر العناصر الزخرفية التي اقتبسها الاخمينيون خلال استفاداتهم من تراث الآشوريين

من نفس عواصمهم واحتمال استقرار بعض من جماعاتهم في او قرب العواصم الآشورية بعد سقوطها ، وكذلك وصلت مثل هذه العناصر والتأثيرات الحضارية الآشورية الاخرى عن طريق جماعات اخرى من الرحل وهم جماعات الاسكوثيين والسيماريين والاخيرين من القبائل التي سكنت جنوبي روسيا وجاءت ايران عن طريق القوقاز .

ومثل هذه الخطوط العريضة لعناصر من الحضارة العراقية تدعمها مراكز عديدة اخرى في منطقتي الشرقين الاوسط والادنى القديمين ، وتمثل الحضارة المصرية ثقلا آخر في المنطقة ثبت كونه مواكبا ومعاصرا تقريبا مع حضارة العراق اضافة الى صلته بها . ان دور الحضارة المصرية وكذلك تفاصيلها الخاصة بالفنون مثلا ترجع بداياتها التقريبية الى فترات قريبة من فترة الالف الخامس ق.م وتعرف ممارسات لتجمعات سكنية كانت مرصوصة على شكل مجموعات من القرى ذات طابع زراعي شبيهة بتلك التجمعات المعروفة في قرى شمال العراق وتحتوى انتاجاتها على عناصر فنية اولية مكملة لهذا العالم الزراعي ومستوحاة منه كذلك .

وتذكرنا العناصر الزخرفية المزينة لفخاريات مواقع هذه القرى الزراعية مثل بدارى والغيوم ونقادة ومرمدة وغيرها بتلك المعروفة من انتاجات جماعات فترة او عصر سامراء في العراق . وفي مصر كما هو الحال في العراق ، يلاحظ ان هذه المجموعات الزخرفية واشكال المنحوتات الفخارية ترتبط دوافع انتاجها بدوافع قريبة ومتشابهة احيانا من التفسيرات المحتمل بشكل اكيد تقريبا ان تكون سحرية تبلورت فيما بعد لتنمو بأتجاه مفاهيم ونظم دينية تكون من الدوافع المعنوية الاساسية في

دفع الفنانين والحرفيين والعمال مثلا حتى الى بناء الاهرامات بكافة حجومها وضخامتها .

ويرتبط الفنانون المصريون بشكل اعمق واقوى بالديانة والمفاهيم الدينية المبرمجة وفق مصالح ذاتية لطبقة ذكية فهمت كيف تسيس افكار التجمعات السكانية بأتجاه تفسيرات معينة للظواهر الحياتية والطبيعية بشكل اصبحت فيه النتيجة تتلخص في اتجاه متزمت نحو خيالية في الرؤى استمرت حتى فترة اخناتون في القرن الرابع عشر ق.م ودعى هذا الفرعون المتحرر الفكر نسبيا من تأثير سلطة الكهنة وبدفع من زوجته الكنعانية الاصل الى ان يجاهر بواقعية في التفكير الديني والى نوع من الوحدانية والى واقعية اخرى في الفن ، ودعا هذا الفرعون البنائين والنحاتين الى ازالة الغموض في بعض اقسام المعابد وخاصة البناء الخاص الذي يستر تمثال المعبود . ولكن يجابه اخناتون بالقوى الرجعية من رجال الدين الذين كانوا يملكون اقتصاديات كبيرة واستطاعوا ان يوقعوا بأخناتون ويأتوا بفراعنة ضعفاء من بعده .

لقد كان لهذه الظروف والاوضاع تأثيرات سلبية في مجالات الانتاج الفني والفكري في مصر ، ولولا ذلك لتمكن الفن المصري من ان يصل وفق مفاهيم اخناتون الى مستويات جيدة وبشكل خاص من ناحية المحتوى اي محتوى الموضوعات الى جانب شكلية رائعة متميزة عرفت بحرية حركات الاشخاص المنحوتة او المرسومة وبحرية اظهار المرأة حتى وهي عارية وفي ملاحظة البعد الثالث غير المقصود التأدية على ما يبدو وذلك من خلال شفافية شكل الاجسام البشرية من خلال ملابسهم الشفافة .

وكان لاحتكاك المصريين بحضارات الشعوب المجاورة بعد تحرير مصر من احتلال الهكسوس ، اثر بالغ الايجابية في نظرتهم الجديدة للعالم وتوضحت هذه النظرة في فنونهم وكتاباتهم ، ولا ينكر هنا دور الكنعانيين كشعب في النقل الحضاري بين المصريين وسكان العراق ، كما كان للفينيقيين الدور البارز في ربط الحضارة المصرية بأكثر من علاقة مع التجمعات السكنية في شمال افريقيا ومع اليونان ايضا • وكان لوصول الفينقيين الى صقليا واسبانيا واستقرارهم في صقلية خاصة لفترة غير قصيرة اثرا كبيرا ولقد اشار اليونانيون وبشكل عابر الى وجودهم هناك بصورة نافسوا فيه محاولات نفوذ اليونانيين في الجزيرة وتعرف نقوش نورا التي لا تترك مجالا للشك في استقرارهم في صقلية وسيطرتهم على اجزاء كبيرة منها(١٢) ، يضاف الى ذلك طابع بناء الموانيء المعروفة بالطابع الفينيقي في الاجزاء الشمالية الغربية من الجزيرة •

لقد استطاع المصريون في انتاجاتهم الفنية الجمع بين الاسلوب الواحد المتميز بشكل عام كما تميزوا بحجوم منحوتاتهم الكبيرة والمبالغ في كبرها ، ثم انهم تميزوا بأستخدامهم للمواد الاولية الصلبة في هذه الانتاجات ، واصبحت هذه النماذج قبلة جلبت اليها انظار الباحثين وغيرهم • والى جانب ما حققه المصريون بتعبيرهم الواضح عن افكارهم الدينية والاجتماعية بالفنون التشكيلية نجد عناصر ابداعية واضحة في اسلوب كتابتهم الخاصة التي استمرت بشكلها الصورى المعبر لتكون وسيلة اخرى للتعبير الفني القومي والديني • واستمر المصريون في تبني هذا الاسلوب في الكتابة بشكل الهم الحثيين على اتباع نفس العلامات المصورة تقريبا ولكن بلغة حثية محلية •

لقد مثل هذان الثقلان الحضاريان في منطقتي الشرقين الاوسط والادنى القديمين في كل من العراق ومصر اعتبارات عديدة تتركز في كون الحضارة لم تنقطع على الرغم من سيطرة بعض المهاجرين والغزاة ونفوذهم الذي يقرب من الاربعة قرون في كل من المنطقتين (الكاشيون والهكسوس) ومع ذلك فقد ظلا يعتبران مركزي الاشعاع الحضاري الرئيسي والثابت والمؤثر بأبعاد مختلفة على شعوب التجمعات السكنية القريبة والبعيدة عنهما ، ولقد كانت من نتائج دراسات فنون هذين المركزين الرئسيين الخروج بمقاييس معتمدة خاصة بدراسات الشعوب القديمة وصلاتها وعلاقات فنونها بنواحي وتفاصيل حضارتها .

ينتقل مركز الثقل الحضاري ومنه الفن التشكيلي لفترة خاصة لاحقة لهيمنة تجمعات جديدة من الهند واوربيين خاصة ومنهم بعض الشعوب الايرانية ، فنتيجة لتوسع الفرس في الشرقين الاوسط والادنى القديمين ومنهم الاخمينيون والفرثيون والساسانيون ، نجد ان هؤلاء الاخيرين يتمكنون من حمل فنونهم ومعالم حضاراتهم الاخرى نحو الغرب خاصة وذلك خلال توسعاتهم السريعة ، واهم ما يميز فنونهم آنذاك : انها كانت تجمع العناصر الفنية للاقاليم التي هيمنوا عليها ، وان حضارة الساسانيين تعتبر فوق ذلك كله حلقة الوصل بين الحضارات السابقة التي ازدهرت في هذه المنطقة وبين الحضارات الجديدة : أى الحضارة الاسلامية وما اعقبها من حضارة القرون الوسطى الاوربية .

وفي نفس الفترة وما بعدها ، انتشرت الفنون الرومانية ذات الشكل الاغريقي وما يهمنا انتشارها في مناطق من جنوب غرب آسيا

وشمال افريقيا بصورة خاصة وفي مناطق عديدة اخرى ، وتأثر الساسانيون بالفن الروماني فيما يتعلق بالاقواس والاطواق والقباب المعروفة سابقا في الشرق الاوسط وشمال افريقيا .

أما الفن الاسلامي ، الذي انتشر على نطاق رقعة الامة الاسلامية ، فلم يكن في اول امره متميزا بل بالعكس كان بسيطا نابعا عن بساطة البداوة والترحال ، وكان انشغال المسلمين بالدين الجديد ومبادئه وقيمه عاملا آخرا في عدم الاهتمام بالفنون وخاصة الرسم والنحت ، كذلك كان خوفهم من الرجوع لعبادة الاوثان والتماثيل[١٣] ، ولكن العصر الاموي فيما بعد يطلعنا على ازدهار كبير لفن الى جانب الازدهار العلمي والادبي . فكان الطراز الاموى الذي تفاعلت فيه شتى المؤثرات العربية من التراث الهلنستي والروماني النابعة من واقعية الامة العربية وتراثها واحتكاكها بشعوب جديدة ذات حضارات وفنون قديمة الطراز ومن ثم يطالعنا الطراز العباسى الذي انتشر في معظم الاقاليم الاسلامية وتجلى هذا الطراز في فن العمارة بشكل خاص .

ورجحت كفة الفنانين المسلمين بفنون الزخارف الارابسك وصوروا الاشكال النباتية بصور اصبحت اقرب الى التجريد وهذا التجريد كان اتجاها في التعبير عن الانسانية . فلم يكن الفن الاسلامي مستخدما في الطقوس الدينية او نشر العقيدة كما هو الحال بالنسبة للفنون القديمة ، وعرفنا ان الفن والدين كانا توأمين منذ البداية[١٤] . وان نفس هذا التجريد كان معبرا عن فكر نير واضح ومبدئي . ولقد توضح هذا الفكر النير الاشراقي في فن تصوير الكتاب : حيث أقبل الفنان

المسلم على تزيين بعض كتب العلم والادب بصور ملونة ذات اساليب أصبحت مدارس اصيلة تأثر بها الفنانون اللاحقون .

ويرى البعض محتوى فلسفيا في التعبير الفني بواسطة الخط والزخرفة ثم بواسطة الرسم المصغر في الكتب .. اي ان هناك حركة متطورة من التجريد الى الحركة . حيث تنج من تطوير الزخرفة الى الرسم وتطوير الاثنتين الى تحول من المجرد الى المجسد . ولقد امتدت اساليب هذه المدارس الأسلامية الفنية ومفاهيمها الفلسفية والجمالية الى اقصى مناطق الشمال الافريقي والاندلسي في اسبانيا وبعض اقسام اوربا الجنوبية[١٥] .

ولقد استطاع المسلمون ان يمدوا سلطانهم في مساحة شاسعة من العالم القديم وان يبسطوا نفوذهم عليها ، فأحدثوا كثيرا من التغييرات في هذه البلاد : دينيا وثقافيا واجتماعيا ، وكونوا فنا اسلاميا ازدهر في هذه البلاد وظهرت فيه مدارس اربعة :

١ ــ المدرسة العربية

٢ ــ المدرسة الايرانية

٣ ــ المدرسة التركية العثمانية

٤ ــ المدرسة الهندية المغولية[١٦]

وتعد المدرسة العربية من اقدم المدارس واطولها عمرا شأنها في ذلك شأن المدرسة الايرانية ، فقد ظهرت منذ البداية واستمرت حتى القرن الثامن عشر الميلادي حين غلب التأثر الاوربي على التقاليد الاسلامية وازدهرت هذه المدرسة في البلاد العربية الواقعة على حوض

البحر الابيض المتوسط وامتد تأثيرها الى بعض البلاد العربية • وظهر في هذه المدرسة العربية عدة اساليب فنية تبعا للعصور التاريخية التي مرت بها ، واطلق على هذه الاساليب العصر التاريخي الذي ظهرت فيه • ففي مصر مثلا نجد الأسلوب الطولوني الفاطمي والمملوكي والعثماني ، وهكذا في غيرها من البلاد العربية الاخرى ، والذي يهمنا هو ان الوحدة الفنية في هذه المدرسة منذ بدايتها ، ومنذ ان كانت خاضعة لحكومة واحدة في دمشق او في بغداد ، كانت ظاهرة وواضحة ، وان انقسام هذا العالم العربي الى اقطار مستقلة وحكومات متعاقبة لم يقسم هذه الوحدة الفنية ، وان الاتجاه الفني العام والمثل الفنية كانت متشابهة بالرغم مما قد يوجد من اختلافات بسيطة في التفاصيل •

وان هذا الاتجاه الفني العام والوحدة الفنية بين مختلف اقطار العالم العربي لم يقض عليها الا اقتباس اساليب فنية جديدة غريبة عن العالم الاسلامي ولا تمت اليه بصلة حميمة ونعني بهذه الاساليب الفنية الغربية •

الهوامش :

١ ـ انظر : الرحلة الفكرية لالبرت انيشتين: وانتقاله من فلسفة للعلم ترتكز على الشعوريه الحسيه والتجريبية ، الى فلسفه اخرى للعلم تقوم على الواقعية العقلية : مجلة عالم الفكر : المجلد الثاني · العدد٢ (١٩٧١) ص١٦٧ـ١٩٢ ·

٢ ـ نفس المصدر السابق : ص٥ ·

٣ ـ معنى الفن : ترجمة سامي خشبة · مراجعة مصطفى حبيب ، دار الكاتب العربي · القاهرة · ١٩٦٨ ·

٤ ـ اننا اليوم نثمن العمل الفني المعين ليس فقط لجماليته بنوع خاص ولكن نضمن قيمة العمل المثير بقدرة غير محدودة ، وفنون حضارتنا القديمة بشكل عام بالاضافة الى شكلها ولونها وملمسها ، تقدم قيمة بالغة الاهمية ، فهي الرموز المرئية للماضي وهي آثار مادية لفترات زمنية قد تكون الدليل الاخر الوحيد الذي بقى حيا لاشـــياء غير ملموسة ·

(5) Goff, B.L, Symbols of Prehistoric Mesopotamia. U.S.A. Yaye University Press P. xxxVII. 1963.

٦ ـ انظر ايضا .

Whitehead. A.N. The Function of Reason. P. 60.

٧ ـ يعتبر بعض الباحثين ان اهتداء السومريين الى التوسع في استخدام المعادن ثورة تطورية لاتقل اثرا عن توصلهم الى معرفة الكتابة · وان هذا التوصل ساهم في تعجيل وصولهم الى معارف اخرى خاصة في قطاعات البناء والري واختراع العجلة ودولاب الفخار. ولقد سهلت وساهمت في علاقاتهم الاحسن مع الاقوام القريبة لهم بفعل التوسع الاقتصادي الكبير الذي نتج عن مجموع هذه الانشطة والابداعات ، ولقد اقاموا علاقات تجارية مع مناطق في ايران وتركيا والخليـج العربي وسوريا ونعرف الان تفاصيل من حملات سومرية على مناطق في جبال زاكروس التركية ، وكانوا يبحثون من وراء هذه الحملات السيطرة على منابع اخرى للمعادن وخاصة النحاس · انظر للتوسع في ذلك :

Schneider, N. Die zeitbestimmungen der wirtschafts — urkunden von ur III (=AnOr. 13) Limet. H. le travail de métal au pays de Sumer au temps de la 3e dynastie d'ur. Paris, 1960, P. 16.

٨ ـ انظر للتوسع في ذلك : مجلة سومر العراقيـة ٠ الاعداد : ٢٠ـ٢٧ وهي تضم تقاريرا اولية عن حفريات مديرية الآثار في موقع تل الصوان القريب من مدينة سامراء الحالية ٠ كذلك انظر :
Parrot, A: Archéologie Mésopotamienne. 2 vol. Paris. 1953.

٩ ـ لقد استطاع اليونانيون ان يجعلوا من معارف شعوب الشرق القديمة نظاما علميا محكما أساسه التجربة والتحليل العقلي ، ومن بعـد استطاع الفلاسفة اليونانيون تقريب هذه العلوم من حواس الانسان بشكل دخلت هذه العلوم في دواخله واثرت في سلوكه وتصرفه ورؤيته للكون والحياة والعلاقات مع الآخرين ٠

١٠ـ مرت مراحل النحت والفن عنـد الآشوريين بشكل عام بالمرحلة الواقعية بشكل طرح الفنانون وضوح وصدق وطبيعة علاقاتهـم وارتباطاتهم بالواقع الاجتماعي والنفسي وهـذا اساس من أسس الشخصية الآشورية المعروفة : انظر كتابي الذي يبحث في الملابس والحلي عند الآشوريين بغداد ١٩٧٠ ٠ ص٧ ٠

١١ـ انظر : جان بوتيرو : الديانة عند البابليين (ترجمة وليد الجادر) بغداد ١٩٧٢ ، والمعروف عن بيروسوس هذا انه كان احد كهنة الاله مردوخ في بابل وفي حوالي عام ١٤٠ ق٠م ذكر عن بيروسوس آخر ذكر انه في مدينة كوز. وبيروسوس كتب باللغة الاغريقية تاريخ بابل في مجلدات ثلاث واهداها انتيوخس الاول : ٢٨٠ـ٢٦١ ق٠م ، وفي مؤلفاته يتكلم بالحقيقة عن عالم متكامل اندثر منذ امـد ليس بالقليل (من المعروف ان سقوط بابل على يد كورش الفارسي كان في ٢٩ تشرين الاول من عام ٥٣٩ ق٠م) انظر نفس المصدر أعـلاه ص ١٠٦ وملاحظة رقم ٣٦ ٠

هناك خطأ تعمده بعض الكتاب الاغـريق بين بيروسوس البابلي كاهن الاله مردوخ في القرن الثالث ق٠م وبيروسوس الذي درس في مدينة كوز ، والمهم ان يكون الاول هو الحقيقي وصاحب المؤلفات

الخاصة بالكتابة عن بابل والتي استفاد منها اليونانيون بشكل لم يتمكنوا من نكرانه وحتى نكران بابليته ومضامينها الخاصه بالعلوم والمعارف العراقية القديمة · وفي الكتاب الثالث يؤرخ بيروسوس البابلي فترة حكم الآشوريين بداية من عهد الملك تكلات فيلاسر الثالث وفترة العهد البابلي المتأخر ، ويذكر عن الحكام الفرس اللذين حكموا بابل ··

للتوسع في مناقشة شخصية ومؤلفات بيروسوس البابلي من فترة القرن الثالث ق·م انظر :

Robert Drews: The Babylonian Chronicles And Berossus. In: IRAQ. vol: xxxv11 Part. 1: 1975 P. 39-55.

١٢ـ انظر للتوسع في حركة الفينقيين في البحر المتوسط واستقرارهم في موانىء عديدة على شواطئه :

R.D Barnett: Early Shipping in the Near East. Antiquity. xxx11 (1958) 226 Pl. 22b...? Donald Harden. The Phoenicians. 1962. 169.

١٣ـ كانت الفنون التشكيلية ومنها التصوير معروفة عند عرب الجاهلية وفي بداية الاسلام، وكانت الكعبة المكرمة مصورة الجدران في الجاهلية، ولما فتحت مكة ازيلت تلك الصور : انظر تفاصيل ذلك د· احمد تيمور باشا : التصوير عند العرب · القاهرة ١٩٤٢ ص٢ ·

١٤ـ د· زكي محمد حسن : اصل الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية · بغداد · ١٩٥٦ ·

١٥ـ د· خالد الجادر · المخطوطات العراقية المرسومة في العصر العباسي · بغداد ١٩٧٢ ، ص٩ · قصة رياض وبياض من المغرب في القرن الثالث عشر ، مخطوطات محفوظة في مكتبة الفاتيكان في ايطاليا ·

١٦ـ من مذكرة مؤتمر الفنانين التشكيليين العرب الذي كان مزمعا عقده في القاهرة عام ١٩٦٩ ومن مقترحات البحث التي كان من المفروض طرحها على المؤتمر ·